

الجزء الأول

كانت ساحة كبيرة غير متضحة الملامح ، طيبة الرائحة، تثير الفضول وتغرس
رغبة المغامرة ، حاولت الاقتراب منها كثيرا إلا أنني دائما ما أجد نفسي مقيدا فلا
أرجع إلا وقد ازددت إصرارا على العودة مرة أخرى .

كل يوم أشاهد المنظر الغامض فتنوق نفسي إلى معرفة خباياه وحقيقة شكله ومظهره
، سيطرت الفكرة على رأسي واحتلت الجزء الأكبر من اهتمامي حتى جاء يوم
تحررت مني القيود لأجد نفسي أمام باب ضخم أتحمسه بشغف علي أعرف ما
وراءه ، كان شعورا غريبا اقشعر منه بدني واضطربت له نفسي متوجسة مما
تجهله .

ظل الحلم يراودني يوما بعد يوم ، وبدأ شعور الرهبة يضمحل تدريجيا حتى وجدت
نفسي يوما أطرق الباب غير عابئ بما يخفيه .

استجمعت قواي وشحذت حواسي ثم دخلت من فرجة صغيرة أترقب بحذر الأشياء
من حولى ، كانت أجمل مما توقعت ، وسريعا هدأت نفسي وسكنت روحي .
غريبة هذه المدينة يبدو عليها الحزن رغم جمالها ، والقلق رغم سكونها ،
والغموض رغم بساطتها .

لم تتمتع بعيني كثيرا ، فسرعان ما أحسست بحجارة حادة تدمي القدمين وتبلي
الأحذية سريعا ، أسرعت فى المسير أبحث عن مكان أفضل قليلا ، انزلت قدماي
فجأة في حفرة كبيرة أشبه ببئر عميق ، حاولت التشبث بجدران البئر الملساء ،
أخذت أصرخ وأصيح فما أجابني غير صوت ارتطامي بالقاع الصلب ، و أظلمت
الدنيا من حولى .

استيقظت من النوم وقد اعتراني فزع شديد حتى بت أشعر بآلام الارتطام تغمر كل
جسدي ، ولفترة غير قصيرة ، جلست صامتا شارد الذهن أحاول تفسير ما حدث
دون جدوى .

مضت بضعة أيام لم يفارق فيها الحلم مخيلتي ، لا أملٌ من التفكير فيه محاولا سبر
أغواره وفهم غموضه .

كانت ليالي الشتاء الباردة تضي على غرفتي رهبة ووحشة ،أحكمت إغلاق النافذة
وأطفأت المصباح ، كان الظلام مخيما على المكان من حولي ولم أدر في أي مكان

أنا الآن ، كل ما استطعت تمييزه كان صوت أنين رقيق لم أسمع مثله في حياتي ، سرت في جسمي قشعريرة باردة وبدأ الخوف يدب في أوصالي ، جاهدت هواجس نفسي واستجمعت قواي ونهضت من مكاني ، ثم تحركت باتجاه الصوت الذي أخذ يزداد رويداً رويداً كلما اقتربت منه .

بدأت أرى ضوءاً خافتاً إلا أنه كان كافياً لأرى طريقي جيداً ، وما هي إلا خطوات قليلة حتى وجدت نفسي في الساحة الجذابة مرة أخرى .

كدت أن أنسى ما قادني إلى هذا المكان الجميل إلا أنه ظل يتردد على مسمعي بحزن شديد ، أرهفت حواسي وأخذت أتبع الصوت من جديد حتى وصلت إلى كوخ جميل المنظر حوله حشد من الناس ، يقف على بابهِ رجل طيب المظهر يوزع الطعام على الناس ويجيب من يسأله منهم .

تعجبت كثيراً ، فلقد خيل لي أن الصوت قادم من داخل الكوخ ، ازداد الغموض غموضاً وبدأت أشعر بالقلق مرة أخرى حتى حسمت أمري .

تسللت إلى الكوخ في بطيء وحذر باحثاً عن الصوت الذي أصبح قريباً جداً من باب الكوخ الخلفي ، اقتربت من الباب الخشبي وبدأت أدفعه إلى الداخل ببطء شديد وقلبي يخفق في شدة وتوتر ، راودتني نفسي كثيراً أن أرجع من حيث أتيت أو أبتعد سريعاً قبل فوات الأوان ، لكن فضولي كان له رأي آخر .

كان الكوخ من الداخل قائم اللون ضعيف الإنارة أشبه ببيت مهجور عفى عليه الزمن .

شيئاً فشيئاً بدأت عينايا تعتاد الظلمة وتميز الأشياء من حولي حتى تبينت صاحب الصوت ، اندهشت كثيراً وظللت واجماً أحرق فيما تراه عيني حتى ظننت أنهما تخدعاني .

لم يجلب خاطري أبداً أن ساكن هذا المكان جواد أبيض جميل سرعان ما سرى حبه في قلبي .

الجزء الثانى

تأملت عينيهِ الحزینتین التي بدتا وكأن بریق الحیاة قد نزع منهما ، شعرت بالأسى من أجله ووددت أن یحدثنی ویشکو إليّ علیّ أستطیع أن أخفف عنه ، اقتربت منه أداعبُ شعره الجمیل وأربت علی ظهره فخیّل لی أنى لمست جسدا میتا من فرط برودته ، حرك رأسه تجاهی كأنه یقرأ أفكاری ویجأوب معها ، إلا أن حرکته زادتنی حيرة وعجبا ، كانت أنفاسه حارة ملتبهة كأنما هی قادمة من قلب بركان ثائر ، وعیناه الحزینتان یكاد الدمع ینفجر منهما إلا أنه لم یعرف أبدا طریقہ خارج أجفانه الصلبة .

شعرت بالتعب من شدة انفعالی فتوجهت إلى حائط قریب وأسندت ظهري عسى أن أستريح قليلا ، لم أصرف عینی عن جوادى الحزین حتى داعبنى النعاس فأرخت جفنی مستسلما .

هیئ لی أن الجواد ینهض من مكانه یتجه نحوی كأنه یعرفنی منذ زمن بعيد ، بدأ حکایتہ أيام أن كان مهرا صغیرا یداعبه أبواه ویدللانه ، کیف كانت حیاته بریئة بسيطة آنذاك ، كل شيء كان جمیلا هادئا رغم قیود والديه وقسوتهما علیه ، ولكن للحياة سنن ، ودوام الحال من المحال ، فسرعان ما كبر المهر واشتد عوده وبدأ یدرك الأمور من حوله .

لم یفكر یوما بطبیعة عمل أبویه فلم یكن یهتم بمثل هذه الأمور ، و الآن قد أصابه الدور وعلیه أن یعرف الكثير .

أقبل علی العمل بشجاعة ولم یتذمر رغم أنه أبدا ما وجد فیہ راحة أو سعادة ، یبدأ یومه باکرا بحرّ عربات الفلاح الثقيلة إلى السوق ثم ینتظر صاحبه حتى یبیعها لیعود لینقل أغراضه إلى الكوخ مرة أخرى .

ظل الأمر كذلك حتى جاء یوم انقلبت فیہ حیاته رأسا علی عقب ، كان کعاداته فی ذلك الموسم ینقل أغراض صاحبه من بلد إلى آخر ، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ، فعلى غیر العادة هاجمتهم عصابة تقطع الطريق علیهم لتنهب ما یحملونه

من خيرات ، اضطرب الجواد الوفي وحاول الفرار بالعربة وصاحبها إلا أنهم
أحكموا الدائرة عليه ، لقد كانت حياته منذ بدايتها لا تعرف إلا جرّ العربة ونقل
الأحمال ، أما خيول اللصوص فقد دربوا جيدا على الكرّ والفرّ
وشدة البأس والسرعة .

وانتهت الحادثة بسرقة متاعهم ولم يصب صاحبه بسوء ، فأخذه راجعا من حيث أتى
، ولم يكد يصل إلى الكوخ حتى انهال عليه صاحبه بالسوط يضربه ويلقي عليه
باللوم ويتهمه بالتقصير في حمايته من النهب والسلب .

أطرق الجواد وسادت لحظات تعيسة من السكون وكأنما انحبست الكلمات في جوفه
، مددت يدي أمسح على ظهره وأداعب شعره كأنما هو إنسان رقيق ألّمت به نازلة
شديدة ، ثم أكمل أنينه ، لقد كنت منكسر النفس فاقد الثقة فجاء صاحبي ليجهز عليّ
ويقضي على ما تبقى من فتات نفسي .

لم أستطع أن ألومه حينها إلا أنه أمعن في تعذيبي فقاطعني وأخذ يحابي الخيول
الأخرى التي معي بعد أن كنت جواده المفضل .

كنت مشتاقا إلى لمسة حانية من يده تخفف عني وتعيد الأمل إلى نفسي، إلا أنه لم
يفعل ، نظرت إلى عينيه الداميتين فكأنهما يستعيدا ما حدث مرة أخرى ليزداد ألمه
شدة ويزداد جرحه عمقا .

ومضت عدة أيام وهو على ذلك الحال حتى بدأ صاحبه ينسى مع الوقت ما حدث
ليعود ليهتم بجواده مرة أخرى ، ربما لأنه أشد خيله بأسا وأكثرهم وفاءً ، وربما أنه
تذكر حبه له وكيف لم يخذله قبل تلك المرة ، لكنه لم يدر أبدا ما حمله جواده
المخلص في قلبه ، بل لعله لم يتخيل يوما أن يكون للجواد قلب ينبض أو حس
مرهف .

ازدهرت تجارة صاحبه في ذلك الوقت حتى امتدت إلى بلاد بعيدة أرسل إليها بعض أعوانه ليتابعوا تجارته وأمواله في تلك البلاد ، واختاره صاحبه ليقوم بنقل البضائع إلى أسواق تلك البلاد .

وبعد رحلة طويلة وصل إلى الأرض الجديدة ، فانتعش الأمل في قلبه وتطلع إلى حياة جديدة يحرس فيها البضائع بدلا من جرّها .

لم يدر أن أمله سيتحطم في صباح اليوم التالي ، وكان الزمان يعيد نفسه ويأبى أن يعطيه ما يريد .

الجزء الثالث والأخير

" الأمل يعطي القدرة على الحياة "

هكذا عاش جوادي على هذا الأمل ، أشياء كثيرة استمد منها وقود قلبه ، حلمه في
ساحات الفروسية والدفاع عن الحق ، فرصة عربية أصيلة تؤمن به ، عزيمة
وإصرار و يقين ، إلا أن روحه ظلت حبيسة آلامه وهو يعرض عنها لكنها تطارده
أينما ذهب ، طوى حزنه في قلبه وأغمض عينيه ثم هوى صريعا تحت قدمي .
لقد مات جوادي الأبيض .

مقدمة الجزء الأول بعد الأخير

" البعث "

ينال الإنسان من هدفه على قدر عزمته .

لم أستطع التوقف عن التفكير في جوادي الأبيض الرقيق ، ووددت أنه لو عاد إليّ أحلامي مرة أخرى يبنّني شكواه وأشاركه آلامه ، لكن الخيال يقف عند الموت والبعث يرهبهما ويخشى أن يتناول عليهما .

لم يرحل الجواد من أحلامي إلا وقد زرع روحه داخلي ، فكأنما امتزج قلبانا فصرنا نتشارك مشاعر وأحاسيس واحدة .

تأملت حياتي فوجدتها لا تختلف كثيرا عن حياة جوادي الحبيب ، إلا أنه مازال لي قلب ينبض وعقل يفكر ويتعلم ، كان موته بداية لي أورثتني قلبا شجاعا وعزيمة لا تنكسر مهما كثرت الكبوات وطالت الأحزان والآلام ، أتذكر الآن كيف تشابهت بداية حياة كل منا ، كنت أعتقد أن الأمر سيكون أفضل كثيرا عندما أنال حريتي وأقبل على حياتي أصنعها بنفسني ، تماما كما تطلع جوادي إلى حياته بعد سفره .

كانت صدمتي الأولى في الناس من حولي القريب منهم والبعيد ، وجدت وجوها قبيحة عديدة أكاد لا أقدر على التنفس حينما أنظر إليها ، وجدت مسوخا بلا روح تطعم الذل وتشرب الهوان من أجل العيش والبقاء ، أما من استيقظت داخله شبه حياة ، حصر تفكيره في نفسه لا يعبد سواها .

أعيتني الحقيقة وأثقلني حالي وأصبحت غريبا حتى عن أهلي ، لجأت إلى أقرب الناس إليّ أحاول التزود من خبرته ونفسي قد امتلأت تفاؤلا وزهوا بعد أن أصبح لي بداية عقل ناضج ونفس تأبى أن تكون من أشباه الرجال .

تذكرت جوادي حينما كان واقفا أمام صاحبه يفصح له عما يجول بخاطره ويقطع في نفسه ، فلم يكن منه إلا أن أنكر عليه حاله واتهمه بتفريطه في عمله بجرّ العربات وحمل الأثقال ، ولم أكن أحسن منه حالا حينما فعلت ما فعل .

حينها أيقنت أنني صرت وحيدا حقا ، رغم ما بقيَ من أناس تشعل الأمل في نفوسنا ، تحولت حياتي إلى جرعة كبيرة من الألم.. أسترق لحظات السعادة منها فيطاردني الواقع والحال ، عرفت لماذا أصبح حال الناس هكذا ، لقد خسر المجتمع عقيدته وأخلاقه فهوى في ظلمة سحيقة أزهارها بغير لون أو رائحة .

صرت حبيس نفسي أفتش عن لحظة أتوارى فيها بعيدا عن أعين الناس ونفوسهم ، أحتضن قلبي وأربت عليه في عطف ومودة حامدا الله على نعمه وفضله ، أيقنت أنه لا فائدة من الإفصاح عن حقيقة نفسي حتى لأقرب الناس ، يجب أولا أن أحقق النجاح والسعادة بمقاييسهم حتى لا أتهم بالتقصير والعجز ، لكم هو شعور صعب أن تعيش عالمين مختلفين أحدهما مع المجتمع والآخر داخل نفسك ، تضحك مع الأول وتبكي في ذات الوقت مع الآخر .

ربما كان الأمر قاسيا بعض الشيء إلا أنه الحل الواقعي الوحيد لكل من هو غريب عن هذا العالم ، ومن لا يقدر على الألم ، عليه أن يختار بين الواقع الذي يعيش والحلم الذي يتمنى .

الجزء الأول بعد الأخير

" التحدى "

يتعامل قلب المؤمن مع القدر كجزء من إيمانه ، بل أن الرضا عن قضاء الله وقدره غاية لا يصل إليها إلا من حسن إيمانه وصدق يقينه .

ومنذ أن مات الجواد الأبيض في حلمي وأنا أفكر طويلا بأمور القدر، كثيرا ما أشعر أنه لم يكن حلما وأن ما رأيته هو انعكاس لصورة قلبي التي تنقسم الكثير مع جوادي الأبيض .

لكن حكاية الأقدار لا تنتهي ، والملاحظ أنه حين يأتي ذكر القدر أمام الناس تتبادر إلى أذهانهم صور محدودة كحوادث الطرق أو الغرق أو غيرها مما يعزونها إلى الأقدار ، لا أدري كم من الناس يفكر في حياته ويرى القدر يحرك كثيرا من الأشياء التي يحسبها الإنسان مبعثرة وبلا معنى .

الناس مع الأقدار لهم شأن عجيب ، فمنهم من يتخذ عدوا يلقي عليه بكل أسباب تعاسته وفشله ، ومنهم من يتعامل معه على أنه لا وجود له ويحاول إقناع الآخرين بذلك ، كهؤلاء من مخرجي السينما الغربية ، ومنهم من يتعامل مع القدر بالواقع والتسليم لما فوق طاقته وإرادته ، فتارة يثور عليه وتارة يستسلم له وتارة أخرى يدعي صنع قدره بنفسه ، أما النوع الأخير ، فلا نراه إلا في المسلم الحق الذي يؤمن بالقدر من منطلق إيمانه بالله وقدرته وبالاختبار الذي يعيشه في الدنيا ، فنراه عند الشدائد صابرا محتسبا راضيا غير معترض ، لا يركن عن الأسباب ولا يعترض على النتائج .

دققت في الأمر فوجدت أن هناك شقا ممن أسكنوا حب الإيمان قلوبهم وجعلوه غايتهم التي يحددونها يتعاملون مع القدر بأسلوب مختلف ، وكأننا هي رسائل ربانية تقودهم وترشدتهم وتمحصهم وتبشرهم ، وما عليهم إلا أن يحسنوا قراءة الرسالة .

أحيانا كثيرة ألمس حقا كيف أن حياة المرء قد قدرت من قبل في الكتاب بعلم الله الواسع المحيط ، كيف جئت إلى هذا المكان بالذات وإلى ماذا انتهى أصحابي الذين شاركوني الطريق نفسه كما نرى في ظاهر الأمر ؟!

لماذا عرفت هؤلاء ولماذا حدثت مشكلة هنا ولماذا هذا التوقيت بالذات ؟!

لماذا نجحت في ذاك الشيء وأخفقت في الآخر، لماذا شعرت بالحزن ولماذا أحسست بالغربة ؟!

حين أنظر إلى كل هذا أجد نفسي وقد أبصرت شيئا أسأل الله أن يكون خيرا وتمكيننا بطاعته ورضاه لا استدراجا ولا اغترارا ، لكن النفس لا تهوى الأهوال وتنفر من الشدائد ولا تريد تحمل الأحزان والآلام ، تكتوي من كل ما تبغض وتثور على كبح جماحها ، تظل تحلم وتتخيل وتتمنى وترغب حتى إذا ما أفاقت أيقنت أن الأمر مرده إلى الله ولا عليها منه إلا السعي فقط .

شعرة بسيطة جدا تفصل التوكل عن التواكل ، والكيس هو من يجعل دائما ميزان العمل نصب عينيه يحاسب نفسه دائما ، لا يلتمس الأعداء بقدر ما يقف على حقيقته ، لا يخشى من مواجهة نفسه مهما حملت من قصور وضعف ، ثم عليه ألا يفسد الأمر بسوء تقدير الدواء .

حينما راجعت حياتي كنت أعجب دائما لماذا لم أنتهِ بعد كل مواقف الضعف التي مررت بها ، كيف أخرج منها ثم أعود بفضل الله وقد أيقنت أنه لولا قدر الله ورحمته لكنت الآن أسوأ حالا ، حتى في الأمور التي كنت أتمناها فيحدث النقيض منها وتقلب الأحوال وتنشج بالسواد كما كنت أتخيل ، ثم لا ألبث أن أشكر الله على أنه قدر لي حالي كما أنا .

بل إن أكبر التغيرات التي أثرت في حياتي كانت بعد موقف ضعف شديد ظننت للحظة أنه النهاية ، وبعدها أحسست أن حياتي الحقيقية بدأت من هذا الضعف الشديد ، وبت أحمد الله أن قدر لي بفضلله هذا التغير الكبير .

والضربات التي لا تقصم الظهر تقويه ، والمسلم لا ينقصم ظهره وفي قلبه ذرة من إيمان .

وليت الناس تتعامل مع الأقدار بشفافية ووضوح ، ليتهم يتركون القوانين التي ابتدعوها ويتعلموا حقا من الأقدار ، ليتهم يفكرون ولو للحظة واحدة فيما يبعثه الله إليهم من رسائل لو اغتنموها لتغيرت كثير من أحوالهم ، إلا أن الإنسان يحبس نفسه داخل شرنقة ضيقة يخشى أن يخرج منها حتى ولو إلى بيت كبير واسع ، ربما الخوف من التجربة واحتمالات الفشل ، وربما هي دعة النفس ورهبتها من التجربة وأخذ زمام المبادرة ، وربما الخوف من المجتمع والناس ، أسباب كثيرة جدا ، إلا أنها تنتهي في أغلب الحال إلى نفس النتيجة تقريبا .

العز بن عبد السلام يفهم رسالة القدر ويعمل على رعاية قطز العبد البسيط الذي اشتراه من السوق لما رأى فيه خيرا ، وأحسب أن حسنات قطز تصب في حسنات من رعاه ، بل إن قطز نفسه كانت حياته كلها تدبيرا من الله وقدره قد كتبه وأنعم عليه بفهمه وحسن التوفيق إليه .

ترى لو نظر العز بن عبد السلام إلى قطز نظرة العبد فقط وسجنه في هذا القالب أكان سيكون مخطئا ؟!

بل لعل البعض قد لأمه على أنه يؤثر قطز على ابنه العاق ، ترى كيف كان ينظر المجتمع إلى رجل يولي عبدا هذه الرعاية ويحابيه بالمودة أكثر من ابنه الذي من لحمه ودمه ؟!

التساؤل نفسه يطرح نفسه في عالمنا ، من منا عنده قدرة على مواجهة الناس والمجتمع بشجاعة ليعلن اختلافه عن نهجهم ومعتقداتهم ؟!

لماذا علينا دائما أن نقتل البراعم في مهدها بدلا أن نوليها رعايتنا؟!

لماذا أصبحنا ننساق وراء قواعد المجتمع رغم معرفتنا بفساد معظمها؟!

لماذا لا نفكر فيما تصنعه الأقدار بأمثلة من حولنا كل جريرتها أنها مختلفة عما ألفته مجتمعاتنا؟!

وإذا نظرت إلى ما افتقدته في صغري وصباي أشعر بوحشة واشتياق وألم شديد من جرح عميق ، أشفق على قلبي الدامي ثم لا ألبث أن أتفكر في حكمة الله أن أكون هكذا ، وكأن القدر يأبى إلا أن يدفعني في طريق بعينه ، وتحدثني نفسي بأنني أدفع ثمنا باهظا وأنه رغم سمو الغاية فإن النهاية غير مأمونة العواقب .

أتألم كثيرا حين أجد نفسي في خانة الفاشلين في حكم المجتمع ، وأتألم أكثر حين أعرف أنني أحرم من أمور قد تآقت إليها نفسي ثم رفضتها حين أيقنت أن المجتمع إذا أعطاني إياها على حالتي هذه أعطانيها متفضلا لا مستحقا لها .

فإذا ما حدث صدام أو تغيرت النفوس قليلا كان المن بما كان منها من عطاء ، وكيف بنفس عزيزة أن ترضى بشيء يظن صاحبه أنه يضحى ويتفضل بها عليها ، حتى وإن كان هذا الظن من صنع أفكار المجتمع لا أكثر .

كلا ، من له هدف بعيد المدى عليه أن يمشي في طريقه غير مبال بوعورة الطريق وبعثرات نفسه ما لم تفض إلى قنوط أو يأس .

وإذا قبلت التحدي فلا ترجع نفسك دونه إلا بإحدى الحسنيين ، وما أوهن مطالب النفس وأمانيتها إن بذلت من أجل إيمان يمن الله به عليها .

أسأل الله أن يرزقنا بصيرة المؤمنين وعزيمة الأنبياء والمرسلين والسير على درب محمد - صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين- .

الجزء الثاني بعد الأخير

" زفرات "

جلست إلى نفسي أتفقد حالها وأتحسس جروحها وآلامها فلمست غصة في حلقي
وغليانا في شرايين دمي ، ثم تذكرت كيف كانت أنفاسه ...
نعم...

نظرات الحزن الدفين نفسها الحبيسة في عينيه ، وذات القلب الملتاع الذي يعصره
الحزن والأسى .

كانت زفراته الحارة لا تنن ولا تهدأ ، وقلبه الدامي يحترق في لوعة واشتياق ، لم
يكن أبدا جوادا عاديا يركن إلى ما يركن إليه أقرانه أو يحني رأسه لأغلاله .

ولزفرات القلب قصص لا تنتهي ومعان لا تقدر على وصفها الكلمات وعليها أقام
الشعراء دواوينهم ، فمنهم من ضل طريقه متحسرا على حبيب لم ينعم به في حرام
، ومنهم من جلس على أطلالها يندب حظه والدنيا التي لا تصادف هواه ، ومنهم من
جعلها سقيا لظلم وانتقام .

ثم هناك من جعل زفراته دليلا ومراة ، تتحرك عاطفته نحو دينه فتختلط بقلب
منكسر لله لا يرى في الدنيا غير سبيل ربه ورفعة لواء الإسلام ، تدله على ما يغفل
عنه الكثير وتعكس له صورة النفس واضحة بلا تبديل...

كلما نزلت إلى الشارع وكلما خالطت الناس التهبت زفراتي وتلاحقت في سرعة
تنهدر كموج عات يضرب جدران قلبي وعقلي .

ثم تناهت إلى مسامعي الدعوات أن عليك بالعلم فإنه مفخرة وعلاء ، وعلى الجانب
الآخر عزاء .

لا نزال نسمع مذكنا صغارا عن مكانة العلماء ، ولم يزل جل الآباء الذين أنعم الله عليهم بالهداية لا يريدون لأبنائهم غير هذي المكانة .

ولا أدري ما الذى حدث حتى اختل ميزان العقل في صدورنا فصرنا نحلم دون حكمة أو تخطيط ، فإذا كانت الغاية حقا هي خدمة الدين فلم لا نربي أولادنا على الفهم الشامل كل حسب ميله ورغبته؟!!

ففي غمرة نشوتنا ونحن نتخيل منظر تكريم أبنائنا بنبوغهم في علم من العلوم ننسى أو نتناسى لسان الحال ، ننسى أن جلّ علماء أمتنا قد دفنوا حين لم يجدوا من يمد لهم يد العون فيكفيهم معيشتهم وكلفة أبحاثهم .

ننسى أن جلّ علماء أمتنا لم يصبحوا علماء إلا عندما ذهبوا إلى الغرب لينفق عليهم ويرسم شباكه حولهم حتى لا يعودوا إلى أمتهم ، فإن غلبهم صوت ضميرهم أخرسه صوت فساد الزمزم وانصراف أصحاب المال عنهم في بلادنا ، فيصبح الغرب ملاذهم الأخير وخيارهم المر ، نعم هناك من العلوم الخدمية ما يمكن العودة بها والنفع في بلادنا لا عذر لأصحابها إن آثروا المال الوفير لجيوب أعدائهم ، وفي الوقت ذاته لا نستطيع أن نطلب من أصحاب العلوم الابتكارية العودة ليقتلهم صاحب منصب أو مال .

نعم ، لا هداية لأمة من غير علم نافع ينير دربها ويهديها الطريق المستقيم ، ولكن يجب ألا ننسى أبدا أن أبا بكر - رضي الله عنه - لم يكن ليستطيع ما استطاعه دون بذل ماله في سبيل الله ، وأن كثيرا من الأئمة كانوا يرعون من يتوسمون فيه الخير ويكفونهم تكاليف العيش ليتفرغوا للعلم ، بل جرت العادة أن يجري الخليفة للعلماء نفقة راتبية من بيت المال حتى لا يشغلهم كسب قوتهم عن الإضافة لعلومهم .

فإذا كنا كلنا سنربي كل أولادنا ليكونوا علماء فكيف سنجاوبهم حين يشكون معيشتهم وعدم قدرتهم حتى على تحصيل أولويات حاجاتهم؟!!

ترانا سنطلب منهم أن يستغلوا علمهم لكسب المال أم نقنعهم بانتظار من يأتي فيتكفل بأمورهم حتى يتفرغوا للعلم والابتكار؟!!

إذا كنا سنربي كل أولادنا ليكونوا علماءً فمن سيعين الفقراء وذوي الحاجة بالمال ؟!

إذا كان علينا أن نفيق فيجب أن نخلص أنفسنا من أنانيتنا ورغبتها في الزهو والتفاخر ولننظر حاجات مجتمعنا على الحقيقة .

فإذا كان الناس قد جعلوا كنز المال وتحصيل الشهرة غايتهم التي لا يفرطون بها فلنربّ نحن أولادنا على الكسب للطاء .

ولنريهم أن يكونوا مثل أبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنهم وعن الصحابة أجمعين - .

فهل ترانا نقدر حقا على ذلك، أم سنلقي بالتبعة على غيرنا فيضيع المعنى مع الكثير الذي ضاع .

فإذا تنهدت على ذاك وجدتنى أتند على حال شبابنا وقد اتخذوا من الطرقات ناديا ومجلسا يقتلون فيها الوقت وأنفسهم معه ، وترى الغالبية وقد رفعت أعلام البطالة السوداء تعلن استسلامها للواقع المزري وتلعن الظروف التي أودت بأحلامهم .

فإذا أمعنت النظر جيدا وجدت أن البطالة شبح لا وجود له إلا في رؤوسنا اصطنعناه بأيدينا وسقيناها بماء الجشع والكبر ، والسوق الذي سأل عنه المهاجرون الأوائل تغيرت ملامحه وتبدلت صفاته ، وأصبح الغش أولى القواعد والاستغلال والجشع أركانه الرئيسية وسياسة الغاب هي القانون الذي يحتكمون إليه .

ثم نندب حظنا بعد ذلك ونشكو كساد سوق العمل !

فإذا ما اتجهنا إلى المهن الحرفية انصبت علينا لعنات المجتمع ووضعنا في قائمته السوداء من المهانين والأذلاء ، وأصبحت القاعدة أن نبتسم في وجه الطبيب مصاص الدماء ونتجهم في وجه الحرفي الشريف .

والويل كل الويل لهذا الحرفي إن تقدم لخطبة ابنتنا حتى لو كان أكثر منها ثقافة وعلماء...

لماذا إذن نتعجب مما يحدث ونشكو من العنوسة وارتفاع نسب البطالة ؟!!

إنها أشد الزفرات وجعا وألما ، حين نزيّف الأمور برغبتنا ولا نخجل من الأنانية وهي تقطر من حروف كلماتنا ويصدح صداها في أركان أفكارنا ثم ندّعي أننا لا نملك من الأمر شيئا ، والكيس يعرف أنه إذا انتظر الفرد من المجتمع أن يغير نظرتة ومن الآخرين أن يأخذوا زمام المبادرة فعليه أن ينتظر حتى يوافيه أجله .

وإذا كانت زفراتنا لا تعدو كونها تنفيسا لا يتبعه عمل فأولى بها ألا تخرج من مكانها وأولى بنا ألا نتحدث عنها .

الجزء الثالث بعد الأخير

" عبرات "

لنعد إلى الوراء بعيدًا ، فثمة تنهدات تلتهب في الصدر .
وهناك ...

وهناك ذكريات لا تنسى ...
فصبرًا أندلس ، فلن ننسك وإن شط بنا المدى ...
ولن نخذلك فنحن إليك قادمون .

ما نسينا خبروها **** كيف ينساها الولوع
كيف يسلوها محب **** بعدها عاف الهجوع
شهد الليل عليه **** ضحكت عنه الدموع
إنها حبُّ مكين **** عرشه بين الضلوع
كم تمنى أن يراها **** لو لما فات رجوع
صار بعد الوصل دهرًا **** بشذى الذكرى قنوع
قطفوا الزهرة منّا **** زهرة كانت تضوع
قد سقيناها دمانا **** مثلها كيف يضيع
جنة عنها لُهينا **** فطردنا بالجموع
وبها عشنا قرونا **** للدياجير شموع

يُعجِب الشرق علاها **** ولها الغرب خضوع
ياربي الأندلس الـ **** خضراء يا طيب الربوع
كم لك اشتاق فؤاد **** وبك هام ولوع
نسأل الرحمن يوماً **** فيه نأتيك جموع

هكذا انسابت كلمات المنشد حارة حزينة تبحث عن مستقر لها ، وما أقسى العتاب
حين يخرج من قلب صادق فيلقى آخرًا مكلوما جريحا ، وتنزف العبرات حمما
تحرق أفئدة المحبين وتشعل صباة العاشقين الصادقين .

ولعبرات المخلصين تاريخ كذاكرة الأمم تتنوع أشكالها وأحوالها في كل نائبة أو
إرث جديد ينتظر الطامحين .

عبرة تشكو حال النفس وهوانها ومدى ضعفها واستكانتها أمام رغباتها ، وكأنما هو
قيد ثقيل يزرع في القدم فيعيق خطوات الأمل ، فإلى متى نظل نخسر في حربها
وإلى متى نستسلم لأسلحتها ؟!

وإلى متى سيظل العجب يرتع في ساحاتها ؟!

فإذا ما جفت الأولى انهمرت أختها لتلحق بها ، تتحسر على ضياع أندلسها
واغتصاب فلسطينها وانتهاك حرمت أمتها ، تنتظر بعين الخزي إلى من سالم
عدوها وقدم القرايين لأصنامهم ورضي بالدنية في دينه .

وعدمنا رجالاً كأبي عبيدة وعمر وأصحابهما...

وعبرة تشكو حال دعائنا ومن رفع لواء القدوة وارتضى حمل الأمانة فلم يعرف
حقيقتها ولم يتركها لحالها ، فالتبس الحق بالباطل والحلال بالحرام وتاه الناس وسط
غابات الجديد البراق يعدهم ويمنيهم وما يعدهم إلا غرورا ، والكل يصفق لناديه بلا
تدبر أو تمييز .

عبرة تشكو حال ملتزمينا إذا ما غضّوا الطرف عن التزامهم أمام المال والنساء ، لا تشبع بطونهم ولا تمل أفئدتهم من تزييف الحقائق ومناققة النفس بما ليس فيها ، تزرف العيون على صدى الكلمات ثم تتحجر العبرات إذا ما دعوا إلى تنفيذ وتطبيق ، ولا بأس من مشادات وصراعات على سفاسف الأمور فلم يعد عندنا مشاكل أو هموم .

وعبرة على حال أهلنا في غزة ، فإن كنا خذلناهم فما كان يليق بهم أن يخذلوا أنفسهم فيصل بهم الذل إلى جرّ الحمير والحملان يسترجون العطف من ذنب الشيطان .

أهكذا يمتنهن المسلم نفسه فيساويها بالنعام ؟!

أهكذا يفقد المسلم عقله فيرجو العدل من زبانية الشيطان ؟!

إلى متى نظل حيارى نبحت فقط عن حياة ، نطرق الغرب والشرق ولا ننظر إلى تنزيل رب العالمين ؟!

أم تراها عبرة أخرى على ألوية الوطنية والعروبة الخرقاء ، نفرق بها بين أخوتنا في الدين ونعود إلى جاهلية بعد عزة الإسلام .

وأخيراً عبرة حارة على من ليس لديه عبرات .

وعبرة حمراء على من اكتفى بعبرته ووقف يعدد عبرات الناس فذهبت حياته دون أن تنبت العبرات .

الجزء الرابع بعد الأخير

" خفقات قلب "

يسير المسلم في حياته بحلوها ومرها يشكر على الخير ويصبر على المر ، يختار ويعزم ويمضي ، يحكم العقل تارة ويبحث عن هوى نفسه تارة أخرى ، وتظل القلوب مستودع النوايا والأحوال ، لا نؤمن إلا إذا وقر الإيمان في قلوبنا ثم صدقه العمل ، ولا يقبل العمل إلا إذا كان القلب خالصا في نيته لله عز وجل ، بل لعلنا محاسبون على خفقات قلوبنا ، على أي شيء نفرح وعلى ماذا نحزن ونغضب .

قلوبنا اليوم مجروحة مكلومة ، ولا أدري هل ذلك لحال أمتنا أم لحال أنفسنا ؟!
ومع ذلك لا تهدأ الخفقات ولا تستحي من الحال فتظل تؤرق مضاجعنا وتسرق الكرى من عيوننا .

بل وأصعب ما في الأمر أن يصل بنا الحال إلى الشوق للخفقات ذاتها وكأنها دليلنا على الحياة ، فإذا ما تصاعد صوت اندفاع الدم في جراته واعتصار الشوق لكل ذرات جدرانه ارتمينا في أحضان أنفسنا نبحث عما افتقدناه وما بكينا عليه .

وإذا كان العقل هو سيد القرار الأخير فإنه لا يملك سرورا أو كآبة ، وياله من اختبار .

هل تخفق قلوبنا حقا على قتل إخواننا وتدنيس مقدساتنا واغتصاب أراضيها ونسائنا ؟!

وهل تخفق قلوبنا على غير مسلم لم نبلغه الإسلام ونعرفه بالنور الذي حملناه وما وقينا ؟!

ثم هل تخفق قلوبنا شوقا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟!

وهل تخفق قلوبنا غيرة على ديننا ؟!

أم أنها خفقات الأغاني التي حولت العشيق إلي إله يهب الحياة ويمنعها لا تطيب الدنيا إلا بنظرته وتذل له الأعناق طمعاً في لمسة من يده ، فتلتهب عواطف الشباب ويتحسر المتزوجون على ما فاتهم من سراب نعيم الحب قبل الزواج .

خفقاتنا لم تعد تعدو أنانيتنا وحبنا لأنفسنا بل وقد يتعدى الأمر إلى لوم الآخرين إن تخطت خفقاتهم حاجات أنفسهم .

وعلى صعيد آخر ، لماذا تخفق قلوبنا شوقا للزوج ؟! فإذا ما أكرمنا الله به ساءت أخلاقنا معه وتململنا من كل طباعه ورجعنا إلى التفكير فقط في أنفسنا ، وفي أفضل الأحوال تناسينا بعده كل خفقات هموم الدين والإخوان .

تخفق قلوبنا للأبناء فإذا ما أكرمنا الله بهم لم نعرف حق الله فيهم ولا نريهم إلا ما نرى .

لماذا تكون خفقات قلوبنا لشهواتنا أشد من خفقاتها لدين الله ولرسوله ؟!

لماذا تكون الخفقات شديدة مؤلمة لفراق حبيب ولا تكون بذات الألم حين تنقلنا الذنوب والمعاصي ولا نحرك ساكنا .

هل يمكن أن يخرج العمل على الوجه الأكمل إذا لم تنتفض له الدماء في قلوبنا ؟!

هل نستطيع أن نصرف جميع خفقاتنا لله ، فلا تخفق قلوبنا لحرام أبدا ؟!

الأمر جد صعب ولا أحسب الوصول إليه سهلاً ، لكنني دائماً ما كنت أتساءل عن سر مخالفة الجوهر للمظهر ، عن سر الازدواجية التي يحياها الكثير منا والمصيبة إن كان مقتنعاً بها راضياً بحاله فيها ، ومن لم يرضَ ، هل حاول حقاً معالجة نيته ومراقبة خفقات نفسه ؟!

هل صدقنا مع الله في توبتنا؟! هل رجعنا نادمين إليه حقا؟! وهل سنصبر على الرجوع والتوبة؟!

وإذا ما سألنا الشباب عن خفقات القلوب توهجت العيون وتصاعدت النبضات وخرج الكلام خافتا يحمل أهات وتوجعات ، ولا أدري كيف يصبرون على الصبابة والشوق ، يعذبون أنفسهم ويتعبون قلوبهم ، يبلغ منهم الحب مبلغه ولا يسعون لتتويجه بزواج قدر سعيهم للاستزادة من العذاب ، وللأسف تحولت حياة معظمهم إلى البحث عن قصة حب ، يعيش فيها مغامرات خياله .

لا أفهم كيف يكون الحب صادقا دون أن يكون حلالا؟!

الحقيقة أن المحبين اليوم لم يعرفوا عن الحب شيئا ، إنما عرفوا فقط أنانيتهم وشهوات أنفسهم .

لو كان يحبها حبا صادقا ما سعى لحديثها أكثر من سعيه لأسباب الزواج بها ، لو كان يحبها حبا صادقا لما طاق البعد عنها وكان الزواج أهم من طلب لقائها .
لو كان يحبها حبا صادقا لاستحى أن يهديها وردة تسأله بالله ألا يتمتع بها في حرام .

ثم ألا يختلف الملتزم بدينه عن غيره؟!

أ يكون همه هو الآخر زوجة جميلة وحياة رغبة سعيدة وبعض الخطب والكتابات الرنانة؟!

أيعقل أن تتساوى خفقات من ذاق حلاوة الإيمان بخفقات هذا الذي لم يعرف إلا حاجاته وشهواته؟!

كلا، والله لو كان قلبه صادقا لما أثر الدنيا على الدين ولما أثر نفسه وراحته على إخوانه .

فليراجع كل منا خفقات قلبه وليجتهد في صونها ، عسى أن يأتي يوم تغير فيه خفقات قلوب رجال منا مجرى الواقع الأليم .

الجزء الخامس بعد الأخير

" بلا عنوان "

ما الناس إلا بالقلوب فإن يمت .. خفقانها فالناس كالأخشاب .

مع لحظاته الأولى ومنذ البداية كان دائما وما زال مستودع الألغاز والأسرار ، ومن يستطيع عنونة لغز أو تسمية سر أو سبر أغوار قلب ، بل كيف أسطر أحاسيسا ووجدانا يفيض بمشاعر شتى لا يملك لها قيذا أو وأدا ؟!

وأظل أعجب من نفسي تنازع نفسي بلا كلل ولا ملل ، وكأننا انسلخنا من عالم غريب وهبطنا على أرض مشوهة بلا ملامح تستنكر وجوهنا وتنفر من أفكارنا ، فإذا ما فاض القلب حبا وصفاءً لأخ أو حبيب ، وانقضت حجب النفس عن بعض خواطرها ، واسترسل اللسان ينهل من معين الصدق الداخلي ، فإني لا أعلم حين أنتهي إلى أين أنتهي ، كثيرا ما تكون حقائق النفس ولحظات صدقها مصدر إزعاج للمقربين منا أو حتى لأنفسنا ذاتها .

وكثيرا ما نرسم صورا ملائكية للحبيب أو الأخ المقرب فننفي عنه رغبات البشر وأخطاءهم ، وننسى أن الإنسان بطبعه مليء برغبات الأنانية لا يهذه إلا الإسلام وتوفيق الله له في مجاهدة نفسه ، والاقتراء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

فإذا ما لاحت للإنسان لحظة ضعف ، ثم اعترف بها بصدق ، فمن يغفر له ذلته ويقدر صدقه وحسن نيته وطيب سريره ؟!

فحتى المقربين والأحباء نادرا ما يتفهمون ذلك ناهينا عن قدرتهم على العفو الصادق .

من يعرف ذلك لا يندهش حين يجد النفوس تتغير لمثل هذه المصارحات بمكنونات الأنفس ، وندر من يملكون قلبا رحيمًا وجانبًا لنا يقدرّون حقًا على العفو والتسامح الحقيقي .

فإذا كنا لا نستطيع أن ننسى جرحًا سببه قريب أو حبيب فهل نقدر أن نمنع أنفسنا أن تكون سببًا في جرح آخر ؟!

ألا نريد نحن أيضًا أن يُغفرَ لنا إذا ما أخطأنا ؟!

أم أننا ننظر فقط من ناحية أنفسنا ؟!

حين أقرأ سيرة الحبيب محمد - صلى الله عليه وسلم - وأرى حرصه على الود والتراحم الحقيقي بين المسلمين ، أفهم أنه مازال ينقصنا الكثير ، وحين أقرأ سيرة الصديق - رضى الله عنه - وفضله على الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - لا أجد تفسيرًا إلا ما قاله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قلبه !

كان - رضى الله عنه - رقيق القلب رحيمًا رفيقًا بالمسلمين ، حتى عده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرفق الناس بأمتة من بعده صلوات ربي وسلامه عليه .

لم يكن الإسلام أبدا دينًا ظاهريًا أو ماديًا يعالج أمور العبادات فقط ، فقد يجاهد الإنسان ويتعلم العلم ثم لا يجد من عمله أجرًا ما لم يتوجه إلى الله بقلبه مبتغيًا وجهه فقط .

أم ترى عجزت قلوبنا عن بسط الرفق والرحمة لإخواننا وأقاربنا بل حتى لأهلينا .

هل سمعتم عن حال صلاح الدين وحزنه وأسفه حتى لم يقدر على الضحك ؟!

وكأن أغلال المسجد الأقصى ودماء المسلمين تكبل شفثيه فتعجزان عن الانفراج حتى لابتسامة .

هو حقا لا يصطنع الحزن والتأثر بل يعيشه ويُدمى له قلبه ولا تهدأ نفسه حتى يبذل كل ما في وسعه لأرض المسلمين .

وكأنني ببلال وأبي بكر - رضي الله عنهما - يشكيان حال قلوبهما مع حلال الدنيا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهدئ من روعهما ويبيثهما فكر التعامل مع بشريتهم بوسطية رائعة ، لكن هل هذا حالنا نحن أيضا ؟!

أم أننا ننسى كل شيء بمجرد أن انطلقنا لنزهة أو رحلة ترفيهية نأتي فيها كثيرا مما لا يحبه الله ورسوله ، ونغفل عن هموم أمتنا ودماء إخواننا وصراخ مقدساتنا وتراب أراضينا .

كيف ينهض هذا الدين بقلوب لا تعطيه إلا فضلات أوقاتها ؟!

كيف ينهض هذا الدين بقلوب لم تنتشر سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكيف أصلح وغير ؟!

كيف تنهض أمة لا يعرف أبنائها إلا مصلحتهم الشخصية حتى في أمور دينهم ؟!

أم ترانا نمنّ على الله بعباداتنا ونستنكر أن يكون الدين محور قلوبنا وحياتنا !

أيمكن أن تتغير قلوبنا وتفيق من غفلتها وتتخلص من أنانيتها وسلبيتها ؟!

أم ستظل كما هي قلوبا بلا عنوان ؟!

الجزء السادس بعد الأخير

" بين الماء والسراب "

مضت فترة طويلة منذ آخر مرة رأيته فيها ، وحسبت أن ما فات مضى وانقضى
وأنتني ودعت أيامه إلى غير رجعة ، فإذا بي أجدني أستحضر صورته مرة أخرى
ليبعث الحزن في نفسي من جديد.

منذ بضعة سنوات كان هناك جواد هادئ مقبل على الحياة لا يدري عن شرورها
الكثير ، مضت حياته غريبة في تقلباتها تتقاذفه الأمواج إلى وجهة يكاد لا يستطيع
التحول عنها .

اشتدت عليه الرياح يوما وهاج عليه البحر حتى ظن أنه الهلاك المحقق وأنها النهاية
لا محالة ،

لكن الله كتب له الحياة من جديد .

لم يفهم حينها أن الرياح التي صرعه هي نفسها التي حملته إلى البر وقد جففت عنه
ما غسله البحر بداخله ، وكأن هموم النفس ليست كافية ليتجرع معها جراح المقربين
وسوء ظن الخلائق .

استوقفني الأمر كثيرا ولم أجده إلا تمحيصا يتبعه تكليف عظيم ، أو غضب نعوذ
بالله منه .

أجلس إلى نفسي كثيرا ويطوف عليّ كل ما مررت به لأجدني رغم كل شيء لم أفقد
كثيرا من روح الجواد الأولى .

ربما تخلصت من قيود الاستكانة وهوان قلة الحيلة ، إلا أن الله أنعم عليّ وحفظ لي ذاك القلب القديم .

وإن كان هذا مبعث للسرور فإنه أيضا مبعث للخوف أن يكون استدراجا من الله عز وجل ، أرى ذنوب نفسي ومعوقاتنا وجروحها الغائرة فأطرق رأسي ، ثم لا ألبث أن أرفعها إذا ما ذكرت جود الكريم وفضله .

ترى هل هذا حقا لأتدرب على إجلاء ما سوى الله عن قلبي أم أنها ذنوبي تعجزني وتجلب عليّ ما أعاني ، أم هي طبيعة البشر التي تأبى الوحدة وتنفر من قفار الطرق وإن كانت خيرا ؟!

ربما لن أعرف الجواب قريبا وربما كانت كل مشاعري من صنع أوهامي وخيالاتي وربما استعمال الله قادم ، فَلَكُمُ أطمع في مَنه وكرمه رغم هواني وضعفي .

الجزء السابع بعد الأخير

" حكاية قلب "

لطالما أشتاق إليها وأنسج في خيالي حالي معها ، لطالما تمنيت أن أصبح في قلبها دون قلق وأن أستأنس برأيها دون كثرة تفكير ومراجعة ، ولطالما ظل قلبي مكلوما يعلم أنه يعيش على مستحيل قد قدر أمره وانتهى ، وإن كان رضاؤنا بقضاء الله عنوان قلوبنا فإن بوحها سلوى وعبراتها تذكرة وحكايتها عبرة .

حين أسرعت المسير سنون عمري وجف ينبوع الهوى في قلبي تمنيت أن كان لي أمُّ كما رسمتها .

أمّ تشربني حب الله قبل لبنها ، وتغمرني بحب المصطفى قبل أحضانها ، لكننا في نهاية الحال لا نملك إلا الرفق لحالها أيا كانت ، فلا شك أنها بذلت قصارى جهدها بحسب علمها .

وسيزل هذا الحاجز الكبير بين اختلاف الأهداف والطموحات وبين اختلاف الرؤى والتطلعات عقبة تخنق المشاعر وتمنع النهر من الفيضان .

أسوق إليكم اليوم حكاية الأم كما تمنيتها وأسأل أُمي أن تسامحني فلقد طمح قلبي فيها أكثر مما طمحت هي في .

القصيدة التالية لشاعر لمس الابن الغريب بداخلي وأفصح ببيان كلماته عن أمنيات ظلت حبيسة خواطري .

غفر الله لأمهاتنا وجزاهم عنا خير الجزاء وأجزل لهم العطايا والثواب .

أماه كم علمتني معنى الحياة وكم وكم
وغذوتني بالصبر حلو العيش في دنيا الألم
وسقيتني بالشكر كيف سجود قلبي في الحرم
علمتني كيف السمو بأن أسامح من ظلم
علمتني أن المذلة للورى شر النقم
علمتني أن التقى صحو الضمير فلم ينم
علمتني وسقيتني وغذوتني أزكى النعم
أترينني أجد الوفاء بكل ذا، لا لن ولم
لكنني سأقص للدنيا حديثك حيث تم
لترى الخليفة كلها أمي كما خط القلم

وحديثها في ليلة ألفيت أمي جالسه
ترفو ملابس مزقت عبر السنين العابسه
وشفاها تشدو كلالاً أغنيات ناعسه
وبحجرها أختي الرضيعة وهي فينا الخامسة
وعلى الحصير أخ يعالج كسرة متيبسه
والفقر والبرد اللعين بصحبة متجانسه
تردي حياة المعوزين إلى مهاو يائسه
فوقفت والشيطان ينفث شره و وساوسه

وصرخت يا أماه ما هذي الحياة البائسه؟!
إنني كرهت العيش في دنيا الشقاء المفلسه
وكأنما أُمي أصابتها بقولي فاجعه
وكأنما شهدت ليل الكرب رؤيا مفزع
وكأنما حلت بنا توا جميعا قارعه
فتغيرت وتنمرت ورمت بأختي الوادعه
وتناولت كتفي وفيها نظرة مترفعه
ولدي كَفَرْتُ تراك أم بك حنة متفوقعه!
أتراك تنكر ما لدينا من عطايا رائعه؟!
أرأيتني يوماً شكوت إلى الزمان مواجهه؟!
إن الشقي هو الكفور هو الحسود الإمعه
فاشكر إلهك إننا سعداء نحيا في دعه

وذهلت كيف؟! أنحن يا أماه في خير بديع؟!
وغداؤنا لم يكف يوماً لا الفطيم ولا الرضيع
وكساؤنا مِزَق وأفضل ما به خيط رفيع
نقضي الليالي ساهرين مؤرقين من الصقيع
هذاك باك ، ذاك شاك، ذا سقيم ، ذا وجيع
أماه نحن من اليتامى واليتيم هنا قطيع
هاتيك دنيا تشتري حق اليتيم ولا تبيع
هاتيك دنيا سادها ظلم رقيق أو وضع
أين العطاء وذا بلاء حالك طحن الجميع

إنني سئمت وما فهمت إلّا ما نحيا كالقطيع
وتسمرت أُمي وعيناها تغطيها الدموع
أظننت يا ولدي بأن الفقر في عري وجوع ؟!
أو كان فقرا أن نعيش على ذبالات الشموع
الفقر في النفس الذليلة أُشربت معنى الخنوع
الفقر في العصيان ينزع منك أنوار الخشوع
الفقر أن ترضى بغير الله يوما في ركوع
الفقر، أين الفقر من قلب أبيّ أو قنوع
الفقر خوف والهدى أمن بآلاف الدروع
الفقر حاشا ، فالرضا بين الحنايا والضلوع
ما عدت لي ولدٌ إذا لم تأت ربك في خضوع

ورأيت أني قد أثرت بذاك ألّا ما دفينه
فلقد بكت أُمي وظلت بعد أياما حزينه
ذكرت أبي الملاح راح وما استراح على سفينه
ذكرت أخا قتلته غدرا طغمة البغي اللعينه
ذكرت أبا في دنشواي قضي ولم يكمل سنينه
ذكرت كذاك بأرض غزة أختها تحيا سجينه
ذكرت أخي المفقود لا ندري قتيلا أو رهينه
وتظل تبكي ثم تبكي وهي تعمل مستكينه
وأنا يمزقني البكاء ولا أطيق لذا أنينه
فصرخت يا أمّاه رفقا إنني لم أعد دينه

أوقد كفرت وقد شكوت فما أنا عبد ضعيف
حقا شكوت وإنما شكوى الضعيف إلى اللطيف
إني شكوت بمنطق طفل وإحساس عنيف
قد ثرتُ إذ شاهدت ما في الناس من ظلم مخيف
أنا ، ما أنا ؟! إني يتيم قلبه قلب رهيف
وأنا أجاهد كي أعيش بمسلك حر شريف
أرجو الحياة وما الحياة لنا سوى حق الرغبة
متسكعا يومي وراء القوت ، حانوتي رصيف
أحيا وفي جسدي ربيع إنما قلبي خريف
فإذا هفوت وتبت يقبلني فذا دين حنيف

ورأيت أُمي كفكفت بالصبر أدمعها التخينه
وغدت تقبلني أيا ولدي الحبيب أنا حزينه
وكأنها طير غريب هاجت الذكرى حنينه
حتى إذا أنس الغريب لعروة وثقى متينه
ورأى بها سبل الحياة زكية السقيا مبينه
متشوقا يوم اللقاء بأرض مكة والمدينه
باتت له كل البلاد بها الهناءة والسكينه
مادام نبع الصفو قد زكت مراحمه معينه
مادام لم يقرب مدى العمر انحرافات الضغينه
مادام قلبا طاهرا ويذا على عهد أمينه

وتحدثت أمي وكل حديثها ذوق رفيع
فلها من القرآن مذكفظة تخريج بديع
قالت : بني إلى الرضا فإذا رضيت فلن تضيع
أرأيت لو رضيت ثمود بصالح كنا نجوع
أرأيت كان المنّ والسلوى شكت عنه الدموع
أرأيت كانوا يوسمون بقتل يحيى أو يسوع
أرأيت لو ما قال موسى نقتضي أجر الصنيع
كنا شهدنا في الحقيقة ما يشيب له الرضيع
أبني فارضَ فإن نور الله في القلب الوديع
الله يا ولدي فسبح ثم صليّ على الشفيع

أقرأت يا ولدي الكتاب كما يراه العارفون ؟
هاتك فاتحة الكتاب فهل وعاها القارئون
وبسرّ بسم الله ما يغزو التحرك والسكون
أعرفت ما تعنيه حاميم وقاف ثم نون ؟
ما السر بين القاف والقرآن لو يتذكرون ؟
ما السر بين النون والقلم في ما يسطرون ؟
ما السر في عدد الحروف ورسمها إذ يكتبون ؟
أعرفت ما تعني الصفات وكلها فوق الظنون ؟
هاتك يا ولدي أمور حار فيها العالمون
فإذا شغلت بكونه أتراك تعرف ما يكون ؟!

فسألتها : يا أم هل عبد تملك قلبه ؟
هل يملك العبد الضعيف نعيمه وسواده ؟
أوليس ربك قد هداه وبعد ذاك أتاه ؟
فيم العتاب وقد قضى العصيان ثم عقابه ؟
قالت : أيا ولدي وإذ خلق الجميل أحبه
وكذاك إذ خلق القبيح إرادة قد عابه
فالعلم عرف فضله والأمر عرف بابه
فالزم بني طريقه ونبيه وكتابه
أخلص بني الدين والزم بالقين رحابه
فإنه يا ولدي يقرب بالهدى أحبابه

فسألتها : فيم الحساب إذن وذا قدر سبق ؟
هذا بتوفيق تعبد ذا بتقدير فسق
قالت : بني فذي إرادته تصدق من صدق
والله أعلم بالبرايا حيث قدر أو رزق
هذا ينام على الحرير وإنما يشكو الأرق
هذا ينام على الحصير وفوق بحر من عرق
هذا غني يشتهي أكل الفقير ولو مرق
هذاك أعشى يشتهي عينا ولو فيها احترق
لو قلت كيف ، فكيف كنت وأنت فى جرم العلق ؟!
ممن يموت مع الفلق أو من يعمر للغسق

فسألتها : وإذن فأين العدل بين العالمين ؟
والعدل من أوصافه سبحانه خير الحاكمين
فأنا فقير ضائع أشكو زحام المترفين
أين العطاء من البلاء هنا لمن ذاق السنين
قالت : وربك لو عرفت لقلت ذا عدل مبين
هذا له مال وذا ولد وذا علم ودين
هذا له زوج عقيم إنما في المحسنين
هذا له طفل تحير فيه طب الأقدمين
كل تساوى في العطاء وفي البلاء وعن يقين
لكنما تخفى أمور بيننا أو تستبين

فرجعت أسأل إنما الأقدار ذي شيء عجب
أمسير، أمخير، عقل الفتى فيها ذهب
إن كانت الأولى فما بال النعيم أو اللهب
أو كانت الأخرى فكيف العبد يسعى للنصب
قالت : رويدك يا بني فذي قضايا لا لعب
تحقيقها خلق وإيجاد ورب قد وهب
تشريعها فعل وإسناد وعبد قد كسب
والله قد خلق العباد وفعلهم علما وجب
ولقد أراد بنا كذا مآ وذا حد الأدب
فالزم طريق الأمر واترك للإرادة ما كتب

فسألتها يا أم يزعم بعضهم ألا إله
إلا إله يدير هذا الكون يخلق ما نراه
وبأن هذا الكون خالق نفسه وعلى هواه
وتعللوا بالعقل لا خلاق عندهم سواه
وبأن هذا الدين أفيون الشعوب ولا هداه
بل كلهم طلاب دنيا ، كلهم طلاب جاه
وبأن بعد الموت لا بعث هناك ولا حياة
فتعجبت أمي وقالت : ويلتي واسوءتاه
أوينكر الحق العلي مكذب تبت يداه
نستغفر الله الذي تعنو لعزته الجباه

أرأيت هذا الكون يا ولدي تخطط في المسير
أرأيت بذرة حنطة قد أنبتت يوما شعير
أرأيت شهد النحل تصنعه مع النحل البعير
أرأيت طيرا تخطئ العش الذي فيه الصغير
فبأي عقل هذه الأكوان تعقل أو تسير
ولكل عقل كبوة مهما بدا كالمستنير
فالعقل في الإنسان يخطئ في الصغير وفي الكبير
أترى تراب الأرض أعقل من مفكر الخاطر
أم أن هذي فتنة من صنع أقاق حقير

كلا فكل الخلق تعرف ربها حتى الحمير

من ذا يوازن في الخليقة بين أنثى أو ذكر
بين العناصر في الهواء وذاك من سر القدر
فنفاية الإنسان واعجبا ، حياة للشجر
وزفير هاتيك الشجيرة منعش صدر البشر
والذرة الخرساء نادت وهي تنذر بالخطر
يا أيها الإنسان حاذر إنني ذر فذر
ولدي من سر الحياة شمس كلا لا وزر
ولأنت إن حطمتني حطمت نفسك في سقر
إن البهائم حين ترعى ليس ترعى في الحجر
فاحذر وعدا يا مستبد فأول الشر الشر

فالكون هذا الكون يعرف بالسليقة مبدعه
لا بل ويعرف قدره في العالمين وموضعه
فإلهنا الرحمن أعطى كل شيء عن سعه
للوحيش أنياب وفي الأسباط تحيا القوقعه
وجميعها قد سبحت أحدا ولا أحد معه
أما أولاء فحسب إبليس اللعين الأربعة
فهم الحقود أو الجهول أو الغبي الإمعه
أو داعر متحلل مما إلهك شرعه
والطفل يعرف قدر ثدي الأم لما أرضعه

أما أولاء فكاللقيط ليس يعرف صانعه

فسألتها : يا أم يزعم بعضهم كسب النبي
وبأنه حقا رسول الله مخلوق ذكي
لكن وصف العصمة العصماء لله العلي
فجميعنا بشر أبونا آدم الأعلى نسيّ
وبأن وحي الله في التشريع والذكر الجلي
لكنه في غير ذلك مثلنا بشر سوي
وبأن هاتيك الشفاعة يوم يبعثنا الولي
فلنجاهد لننال بعضا من مقامات النبي
فتعجبت أمي وقالت : ذاك مفهوم غبي
لو كان ذاك كما تقول لجاؤ كل ضحى نبي

أرأيت رب العرش أهدى الذكر إلا مصطفىاه
أتراه كرم في الكتاب بمثل ما أولى عداه
أتراه في الإسراء والمعراج يلحقه سواه
أيريه آية ربه الكبرى ولم يبلغ مداه
أويقسم الرب العلي بغير ذي عز وجاه
أوليس أول من تشق الأرض عنه مجتباة
أينال مرتبة المشفع غير محبوب الإله
ولعصمة المعصوم أمر ربك الهادي قضاءه
إن النبي بني لو حققت ديوان الهداه

ولسوف تعرف عنه يوما فوق ما يحكي الرواه

أقرأت في الأحزاب يا ولدي ؟ فكيف رأيتها ؟
أتراه يصبح أسوة لو لم يقم في المنتهى ؟
أقرأت يا ولدي بأي الفتح كيف وجدتها ؟
ويتم نعمته عليك ، تراك كيف فهمتها
ولو أنهم جاءوك قل لي أين ، هل أدركتها ؟
ولسوف يعطيك الإله ، ترى بني نسيتها
أعرفته إلا به أم أنت قد أولتها
لا يا بني قتلك أذواق فهلا ذقتها
ولسوف تعرف قدره يوما وحسبك وقتها
ولإن سألت شفاعة الهادي هنا لرزقتها

فسألتها : يا أم إن المصطفى باب الوصول
وله الوسيلة والفضيلة والشفاعة والقبول
ولديه من ثقل الرسالة ما تنوء به الفحول
فهو الإمام ، هو الأمير ، هو المعلم والرسول
وهو الذي زهد المتاع فزهرة الدنيا فضول
فيم الزواج بتسع زوجات عدا أم البتول ؟
فتهدجت أمي وثارت مثل إعصار مهول
قالت : حذار مداخل الشيطان يا هذا الجهول
فلكم رأيت نقيع ثم الشك يعصف بالعقول

ولأنت إن تغزو الشكوك هلكت أنت ومن تعول

إن الرسول بني ميثاق الإله به استهل
وبه كمالات الخليفة كلها منذ الأزل
فهو المكمل في الشريعة والعقيدة والعمل
وهو الدليل لكل من يرجو الحياة بلا زلل
كملت مقامات الهداة به فذا بدر أهل
لو كان ينقص ذرة دون الكمال لما اكتمل
أتراه يأمر بالزواج وينثني نحو العلل ؟
أيعيش رهبانية سبقت وخربت الملل ؟
كلا فذا وجه الكمال لنا وذا أعلى مثل
وتعدد الزوجات بعدُ شريعة الرب الأجل

وانظر لمن سبقوه بعثا من رسول أو نبي
يعقوب كم زوجاته يعقوب ذا رأس البكي
وكذاك داود الذي أبكى الجبال مع الشجي
وكذا سليمان الذي قهر الشياطين العصي
من ذا يحرم ما أحل الله غير فتى شقي
وزواج طه شرع ربك للضعيف وللقوي
فالدين يبني أسرة الأطهار بالشرع الجلي
لو كن يستهوينه لأسرنه وهو الفتى
وخديجة الكبرى لتقطع وحدها أنف الغوي

نعمت لنا أمّا ونعمت خير زوجات النبي

من للأرامل إن غدون بلا معين أو نصير؟!
من للعقيم وقد غدت تخشى ويقلقها العشير؟!
من للتي ترعى الصغير إذا استبد أبو الصغير؟!
من للتي تخشى المفاتن وهي شر مستطير؟!
من للتي ترجو الكفيل ولو أبا كوخ حقير؟!
من للتي باتت كقوس الصبر أو ظهر البعير؟!
من للتي تشكو بلاء جفف الغصن النضير؟!
أترى يعشن على البلاء فيثمر الشر الكثير؟!
أم يرتضين تعدد الزوجات في كنف العشير؟!
هاتك يا ولدي شريعة ربك المولى الكبير

فإذا أسى طه النبي يضم الجرح الأليم
إذ ضم سودة بعد زوج مات مغترب الرقيم
أو ضم عائشة الحنون على المزمّل كالنسيم
أو ضم حفصة بعدما فقدت مهاجرها العظيم
أو ضم زينب من خزيمة وهي أرملة الحميم
أو بنت زاد الركب ذات الهجرتين حمى اليتيم
أو ضم زينب بنت جحش إذ قضى الذكر الحكيم
وكذا جويرية التي انتزعت من المجد القديم
وكذا صفية إذ رأت قمرا ففازت بالنعيم

واختم برملة هل ترى إلا الكرامة للكريم

أوقد عرفت ، فقلت : إي ، قالت فتب علّ الغفور

فأجبت ما أنا منك فالشك ما لأك الصدور

فلقد سمعت ، فقاطعتني أنه طه الطهور

كم كان يشتاق البنين ففي بنيه هدى ونور

ولقد تزوج علّ إحداهن تعقب من زهور

لكن ربك لم يشأ وإلهنا بر شكور

جعل التعدد رخصة للقادرين ذوي المهور

وكذاك قد جعل الطلاق لدفع آلاف الشرور

والعبد ما ملكت يداه حسابه يوم النشور

من زل ذل ومن أهل هدى فولدان وحوور

فسألتها : يا أم فيم إذن عبارات العتاب ؟

والله أنزل عدة الآيات منها في الكتاب

قالت : رويدك يا بني فذاك من لب اللباب

فإنه جل جلاله رب المثوبة والعقاب

ويعلم العبد الضعيف بمن على سيف الحساب

أولست تقرأ كيف قدم عفوه قبل الخطاب

ونبيننا قبل النبوة لم يرد شيئا يعاب

أفبعد أن شرح المهيمن صدره ثم ارتياب ؟!

حاشا وكلنا فهو طه صاحب السؤل المجاب

كلا فما أحلى حديث الحب حتى في العتاب

فسألتها : يا أم لكن شرعنا شرع سديد
والشرع شرع للجميع فلا مراد ولا مرید
وتعدد الزوجات شرعا للقريب وللبعید
أوكن تسعا للرسول وأربعا للمستزید
قالت : فلا تعجل ففي القرآن إعجاز شديد
واقراً من الأحزاب ترجي من تشاء كما تريد
قد كن تسعا وقتها فأحلهن بلا مزيد
وتنزلت بعد النساء بأربع وهو الشهيد
أترى يطلق وهو لم يؤمر وذا شرع حمید
والله يحكم لا معقب فهو ذو العرش المجید

وانظر لما قال العلي لهن في الذكر المبين
لستن قط كغيركن ولا نساء المرسلين
فالله كرمهن تكريماً يثير الحاسدين
هن اللواتي صرن فينا أمهات المؤمنين
حرمن تأبيداً على أبنائهن المسلمين
وغدون بعضاً من حمى الرحمن في أعلى اليمين
أيصرن بعد مطلقات قد يسئن ولا ضمين
والمصطفى الهادي أتانا رحمة للعالمين
ولذاك أمسكهن مأذونا من الحق المبين

ولذلك ممن فاز فيه المصطفى دنيا ودين

فسألتها : يا أم كيف وشرع مولانا جلي
لما أراد بنو هشام رفعة النسب الزكي
غضب النبي وقال : لا وأبى الزواج على عليّ
قالت : بني فذا رباط ليس يرضاه العلي
ما كان للبنت اختيار في أبي جهل الشقي
لكنما يختارها من ليس صهراً للنبي
وافهم ففي مولاتنا الزهراء سلطان قوي
هاتيك سيدة النساء لنورها قهر جلي
من ذا يطيق القهر إن غضبت ولا حتى عليّ
عند البتول وأمها يقف التعدد يا غبي

فسألتها : يا أم كل الشرع في الذكر الحميد
فلم المذاهب ، هل ترين أنت بتشريع جديد ؟
أم أننا نهوى الخلاف على رقيب أو عتيد
قالت : فهذي رحمة الرحمن رفقا بالعبيد
فبنا القوي بنا الضعيف بنا المعمر والوليد
فالعارفون حقيقة طلبوا العزائم بالقديد
والزاهدون طريقة رغبوا النجاة ولا مزيد
والعالمون شريعة عبدوه بالرأي السديد

وجميعهم وبفضل ربك من ذوي القلب الرشيد
فهم جميعا كالنجوم هدى فتابع من تريد

واقراً معي حكم الطهارة كم بها معنى خفي
واقراً بأحكام الرضاة مالكا والشافعي
هذا له سند وذا سند وذا أمر جلي
أما اختلافهم برحمته فذي سعة الولي
فالراشدون جميعهم أفتوا على شرع النبي
وبنوا على نص الحديث الثابت السند القوي
قد زانهم قلب تقي زاهد بر زكي
واستحفظوه كتاب ربك في فؤاد عبقر
فالعلم جد واجتهاد في رضا المولى العلي
فانظر وسلم يابني ففي الرضا شرف وري

فسألتها : يا أم لكن كل شيء في الكتاب
فلم الحديث وفي الحديث مذاهب في كل باب ؟
يكفي لنا القرآن فهو مبرأ مما يعاب
قالت : أعوذ برب طه من متاهات السراب
هذي بني مزلق هذاك سم ذي حراب
واقراً بآيات النساء كذاك في النحل الجواب
لتبين التنزيل قل للسائلين وفي الرقاب
كيف الصلاة كذا الزكاة كذا النوافل والحساب

من ذا تلقى الوحي يا ولدي كفاحا في الرحاب
لولا ه يا ولدي لما سجد الملائك للتراب

فسألتها : يا أم لكن كلنا رهن القدر
فلم التقيد بالمذاهب وهي من صنع البشر
أوليس أولى أن نفتش في الكتاب وفي الأثر
قالت : فسوف ترى المذاهب كالرذاذ من المطر
والجهل إن تمسكه حمق وهو إن تنفق غرر
والعلم إن تنتشره شمس وهو إن تستر قمر
أين الأئمة من قريش نورهم شق النهر
أين الرجال من الذين لهم أنين في السحر
بخل الزمان بمثلهم فقهاء من أهل النظر
كلا فقد دار الزمان وأكثر الخير اندثر

فسألتها : يا أم فيم نقول ذي كتب صحاح ؟
والمتن مهما كان ثبنا نقضه شيء مباح
وصحيح ما ندري هو القرآن مفتاح الفلاح
أوتقرئين حديث هاتيك الذبابة في ارتياح
قالت : وربك من يشك به لمفتون وقاح
هذا البخاري الإمام الثبت مصباح الرباح
لو صح بعض دون بعض لانتهى المبنى وراح
ومصادر التشريع أربعة بهن الفجر لاح

تنزيل ربك والحديث وما أقر أولو الصلاح
واختم بما استن القياس فمن أبي فإلى السلاح

أما الكتاب فليس ينكره سوى من قد كفر
وكذاك في متواتر المروي عن خير البشر
والسنة الكتب الصحاح أقرها أهل النظر
واحذر فإن الشك يزحف في النفوس على حذر
فإذا انزلت شككت فيما قد تواتر من خبر
وتظل هاتيك السموم تسوقنا للمنحدر
حتى إذا انتهك الحديث تصدعت عمد الأثر
ويصاب من بعد الكتاب بما تجمع من خطر
وكذاك نصبح لا كتاب ولا حديث ولا وزر
ولذاك ما يبغى الطغاة وإنما يأبى القدر

فسألتها : يا أم مال الناس قد ضلوا الطريق
وغدوا على جهل جهول بالعدو وبالصديق
يتعصبون بلا هدى وكأنهم رأس المضيق
هذا كفور ذا جهول ذاك بدعي عريق
هم وحدهم جند الإله وغيرهم أهل الحريق
ويقودهم متبجح بالزهد يربيه البريق
متفيسه بلسانه والقلب سفاح عريق
قالت : بني فهؤلاء خوارج الفكر العتيق

فالدّين دين الله ليس لمدعي العلم الصّفيق
والله لو ملك الجهول لكان كل دم يريق

فسألتها : يا أم كيف ترين تطبيق الشريعة ؟
قالت : فذا عين المنى فعساك أن تحيا جميعه
فسألتها : أوأخذ بعض دونما بعض وجيعه ؟
قالت : فنصف الكفر كفر فاحش من سم النقيعه
ماذا تقول عن الربا مهما تغلفه الخديعه ؟!
ماذا تقول عن الخيانة وهي مهلكة وضيعه ؟!
ماذا تقول لأمة ليست لمولاها مطيعه ؟!
تحيا العفاف شفاهها وقلوبها تحيا خليعه ؟!
كلا فلن يحيا الهدى إلا من استهدى شفيعه ؟!
فإذا حييت الشرع في مضر فقم واشهد ربيعه ؟!

فسألتها : أوليس رب العرش يعطي سائله ؟
قالت : وعن سعة بني فكم عطايا هائله
فسألتها : أماه كيف أنال زوجا فاضله ؟
كيما تشاركني جهاد الرزق ثم وسائله
قالت : أيا عجباً أتطلب زوجة أم عائله
فالرزق مقسوم وإن عنا بسعي نائله
أتشك في رزق الإله فبت تسأل سائله

أترى الزواج تجارة أتعين ربك غافله
أوليس ربك قال قرن لفضليات كامله
يا حسرتا فسد الزمان فما أشد رذائله

فسألتها : يا أم شرع الله قام على العمل
فلم النساء وهن نصف الشعب يحرم من الأمل
والله قال قل اعملوا هاتيك أيام دول
ونساء طه المصطفى يضربن في هذا المثل
قد كن يغزلن الثياب وهن أطهار الأزل
قالت : بني فخف إلهك واخش من عقبى الزلل
أترى المصانع والمزارع للنساء بها محل
أترى الحوامل قد أمن من الزحام المستغل
أترى البكارى إذ يثرن على عبارات الغزل
وقل اعملوا حقا ولكن في رضا الرب الأجل

من ذا يحب لزوجه وبناته هذي الفضائع
نزع الحياء فلم نعد نلقى سوى أنكى الفواجع
فتن تطل برأسها تغري الجماد بلا براقع
كم خلفت بيتا شقيا كل طفل فيه ضائع
هو للحنان وللأمومة ظامئ أبدا وجائع
وكرامة الأنثى أمومتها فكم فيها روائع
مهما يكن فحنان أمك لا تقاس به المراضع

إنا فقدنا الدين والدنيا وضيعنا الشرائع
وقل اعملوا هي للنساء وقرن يا هذا المدافع
وقل اعملوا حقا ولكن غير هاتيك القواطع

وانظر بني فهل رأيت الرزق زاد أم انعكس
والأمر وأسفاه يسير القهقري وقد انتكس
فالخير كان بأرضنا نهرا زكيا فاحتبس
كان التوكل نعمة كبرى لكل فارتكس
كان الفقير يرى الرضا في بعض شيء من عدس
والآن حتى ذاك أيضا غاب عنا وانحبس
ضاع التوكل مذ لزمنا المشركين وهم نجس
خدعوك يا ولدي فقالوا الشمس تحتاج القبس
صدقتهم فغدا الزمان وقد تغير بل عبس
وقل اعملوا حقا ولكن لا حرام ولا دنس

فسألتها : يا أم كيف أعيش في رغد هني ؟
وأنا أخاف الفقر أخشى عيلة تردي الشجي
يكفي لنا طفلان يا أمي فذا زمن عصي
ذكرنا وأنتى كي نعيش حياتنا عيش الغني
قالت : معاذ الله يا ولدي فذا كفر جلي
من ذا يشارك ربنا في خلقه الخلق السوي
إن كنت تعلم غيبه فاختر لنفسك يا ولي

أو كنت تعرف أين رزقك فارتزق يا عبقري
أو كنت تدري العمر فاغنم عمر نوح يا فتى
هاتيك من خدع العدو لنا فحاذر يا صبي

فسألتها : يا أم أين هو العدو فذي شتيمة ؟
قالت : بني فهل جهلت ذوي الدسائس والسخيمة ؟!
ماذا تقول لعصبة تجد الربا أحلى غنيمة ؟!
ماذا تقول لأمة بات الزنا فيها سليمة ؟!
ماذا تقول لقرية يجد الغوي بها نعيمة ؟!
وهم ألد الناس أعداءً لأمتنا العظيمة
فرسولنا قال أكثروا تلقوا من المولى نعيمة
لكن أعداء الهدى قالوا تكاثركم جريمة
فهم يريدون إضعاف الدين حتى لا نقيمهم
ولأنت إن واليتهم حطمت شرعتك القويمة

كم زيفوا كم حرفوا عمدا رسالات السماء
مازال عجل السامري بقلبهم وله الولاء
فالمنّ والسلوى أبوه وما ارتضوا إلا الغثاء
والأصفر الرنان ربهم له يتلى الدعاء
كم دبّروا من فتنة كم قتلوا من أبرياء
فهم يريدون الورى المستضعفين الأغبياء
الخاملين العاطلين من العزيمة والمضاء

كي نستذل لكي نضل من العبيد أو الإماء
وليهلكنهم الإله بقتلهم للأنبياء
وبذبحهم للأبرياء وحبهم سفك الدماء

واسمع لداروين إذ يعرف جده بين القروء
ماذا يريد سوى جحود الواحد الأحد الودود
واشهد فرويد الفذ قال : الجنس أستاذ الوجود
ماذا يريد سوى الرذيلة وهي تعتصر النهود
وانظر لماركس إذ يقول الدين أفيون كؤود
ماذا يريد سوى خراب الكون بالغل الحقود
واقراً لهرتزل إذ يخطط في بروتكول اليهود
ماذا يريد سوى الدمار لنا وها نحن الشهود
أترى مصادفة بأن أولاء جمعا من يهود
أم أن حية خبير الرقطاء شيطان ولود

واقراً من العهد القديم فكم حشوه من الهراء
فلكم وكم نسبوا الخطيئة ويلتا للأنبياء
نسبوا لإبراهيم إثما وهو زور وافتراء
نسبوا للوط فعلة يندى لها وجه الحياء
نسبوا إلى يعقوب إفكا وهو من هذا براء
نسبوا إلى داود ما ياباه حتى الأبدياء
نسبوا سليمان النبي إلى التشكك في السماء

ولقد أرادوا قتل عيسى بعد يحيى حين جاء
يا ليت أنك بختنصر قد قضيت على الوباء
لكن ربك لم يرد حتى نرى هذا البلاء

فسألتها : يا أم أخشى منهم كيذا وإنه
قالت فإننا لا نخاف سوى الإله وتلك منه
كنا رماحا في يد الحق الذى يرعى الأسنة
كنا جلودا كلنا لا ننحني حتى الأجنه
حتى الشيوخ فلم يكن يرعى المجاهد فيه سنه
حتى العجائز كم رأيناهن في قمم مسنه
كل العدا كانت تحاذر بأسنا إنسا وجنه
فالحق فينا ثورة شماء لم تك مستكنه
والحق حق يا بني وحقنا ما فيه ضنه
فإذا نصرت الله يا ولدي وفي طه فإنه

واعلم بني بأنهم يخشون بأس المؤمنين
فهم الذين يقاتلون عدوهم متحصنين
ولباس عبد مؤمن أقوى وأقطع باليقين
فالحق يعطي أهله عزم الأباة المتقين
الله أكبر يا فتى نحن الأولى قطعوا الوتين
قطعوا وتين الكفر وانتعلوا رؤوس المشركين

أنا لا أخاف سوى هوائك فأنت في حصن حصين

فالله يحفظ جنده في عزة الدين المتين

وسيرفع الله اللواء ، لواء خير المرسلين

وستهتف الدنيا معاً حمداً لرب العالمين

فسألتها : يا أم شيء حير العقل الزكي

كيف الحضارة عندهم لا عند أتباع النبي ؟

ولنحن أقرب منهم لله في الدرب السوي

فالكهرباء ومعجزات العصر ما يرجو الخلي

هاتيك مخترعاتهم والشرق في نوم هني

جازوا الكواكب وانتنوا نحو الفضاء السرمدي

أترينهم يا أم هم أم نحن أتباع النبي

فتبسمت أُمي وقالت هذه سنن علي

فالله قدر للمُجد نصيبه نعم الولي

من جد للدنيا فدنيا والمنازل للثقي

وانظر بني إلى الجدود فكم سعوا في كل واد

كانوا الأئمة في العلوم وفي الفنون وفي الجهاد

كانوا هم الرواد للدنيا بجد واجتهاد

صناع تاريخ الورى صناع أمجاد شداد

يرقون أسنام الفضاء لكل يوم في ازدياد

بلغوا الحقيقة في التقى بلغوا النهاية في المراد

أخذوا من الأسباب ما يرضى به رب العباد
ولذا غدوا علماء بل حكماء بل سقيا وزاد
ولذا فقد ازدهرت حضارتهم فما عرفوا الفساد
ملكوا النفوس فملّكوا وغدوا سلاطين البلاد

وانظر بني فكيف زال الملك عنا في سنين
لما تقاعس بعضنا عن نصر بعض خائفين
لما تفرقنا بأطماع تزل الطامعين
أرأيت أندلسا التي راحت من المستضعفين
خُنا قضايانا وخُنا ربنا ، خُنا اليقين
والله لا يهدي وذا القرآن كيد الخائنين
فتمزقت إربا وعن ضعف بلاد المسلمين
هم جاهدوا فجزاهم المولى جزاء الصابرين
والمسلمون تواكلوا فأذلهم دنيا ودين
فانهض وقم واعمل بني فنعم أجر العاملين

فسألتها يا أم فيمَ الحرب في دنيا السلام ؟
والهنا وهو السلام رسوله خير الأنام
أونحن بالسيف انتجاعا للمحبة والوئام ؟!
قالت : فكيف إذا ظلمت هل تولول في الظلام
أم تبذل الروح انتصارا للكرامة والكرام
والكون يحتقر الضعيف فكل مغلوب يضام

هل كان قيصر داعياً أو كان كسرى للسلام
هذي خديعتهم لنا حتى تفاجئنا السهام
كلا ورب العرش واسأل ركن من البيت الحرام
من أنكر الحق استحق الرد من حد الحسام

واقراً من القرآن إن ما شئت تاريخ اليهود
واقراً من التوراة فاسم إلههم رب الجنود
وانظر لمن زعموا المحبة كيف هم بيض وسود
كم قتلوا باسم المسيح وباسمه خانوا العهد
ومحاكم التفتيش تشهد بالمذابح والجحود
أنسيت ما فعل الصليبيون في أرض الأسود
قالوا على الأرض السلام وفجروا الغل الحقود
قالوا وبالناس المفرة يوم أن ذبحوا الجود
وانظر صلاح الدين منتصرا وكلهم شهود
فالعفو ضعف في الدليل وقوة فيمن يسود

أرأيت حراً يستذل ولو مضى في غير زاد
أرأيت طالب رفعة في غير جد واجتهاد
أرأيت من ترك الجهاد ولم يشرد في البلاد
فشريعة الإسلام لا ترضى الهوان ولا الفساد
واقراً أعدوا ما استطعتم ثم قم ثبت الفؤاد
وانهض ولو فرداً لربك فالجهاد هو الرشاد

من لم يجاهد عمره فهو المجندل في السواد
أولم ترَ الإسلام أصبح بعد بدر في ازدياد
فانهض وأذن بالجهاد وعش وامت ثبت العماد
وإذا سُئلت فقل نعم الدين عمدته الجهاد

واحذر بني شباكههم فلکم لهم مكر خفي
إذ يعزمون بأن دين الله قام على القسي
كلا وأيم الله فالإسلام يجتذب النقي
واسأل دعاة في فجاج الأرض كلهم وصي
أرض المغول وفي الملايو والفلبين القصي
أمم سعت وعلى اقتناع بالهدى نحو النبي
وانظر خراسان التي قد أنبتت ألفي ولي
هل كان في هذا غناءً عن جهادهم الأبى
كلا فدين الله سلم للذي يرجو العلي
أما الذي يبغي فإن جهاده فرض قوي

واقراً جدودك يا فتى وامحو الظنون السائده
وانظر معي ثمر الجهاد وطق بني مشاهده
هاتيك بدر ذي حنين ذي تبوك الخالده
واشهد معي اليرموك حيث ترى الخلود وخالده
والقادسية حطمت أحلام كسرى البائده
حطين كانت للنسور وللجوارح مائده

ونداؤنا في عين جالوت يخلد قائده
واذكر رشيد فكم بها طير تصيد صائده
رمضان حيا جند مصر لأرض سينا عائده
فإذا سئلت فقل : نعم ، أنا من شعوب رائده

فسألتها : يا أم كيف أجاهد البغي الدني ؟
بالمال أم بالزاد أم ترين بالذكر الخفي
قالت : فبئس جهادكم هذا المرقع والزري
إن الجهاد بني بالنفس العزيزة للأبي
فالمال يبتاع السلاح وليس يدفع للشقي
فانهض وقم جاهد بسيف الله ذي القهر الجلي
وانصر أخ الإسلام مهما كان في فج قصي
إما ظلمت فقل بسيفك نحن أتباع النبي
فإذا انتصرت فقل بقلبك : نحمد الله العلي
وإذا سئلت فقل : نعم ، أنا مسلم حر قوي

فسألتها : يا أم كيف ترين يرقى المسلمون ؟
قالت : بني إذا أقام العدل فينا الحاكمون
وإذا تعفف عن تراب الأرض فينا العالمون
وإذا أقام الشرع باسم الله فينا الراشدون
وإذا توارثنا الأمانة لا فساد ولا مجون

وإذا صدقنا واستقمنا لا كذوب ولا خؤون
وإذا علا علمُ الجهاد ، فتركه شرعا جنون
وغدت حياة المسلمين تقول إنا مؤمنون
وتقاسموا الأرزاق حتى لا نذل ولا نهون
ولرحمة الرحمن خير بعد مما يجمعون

فسألتها : يا أم كيف ترين أسباب الوصول ؟
قالت : من القرآن يا ولدي فذا باب المثل
فسألتها : وصلاتنا أُمي على طه الرسول
قالت : نعم بعد الكتاب فإنه أصل الأصول
فسألتها : ودعاؤنا يا أم عن سبق النقول
قالت : نعم بعد الصلاة على أبي الزهرا البتول
فسألتها : أقرأتِ ورداً عن أئمتنا الفحول ؟
قالت : نعم بعد الدعاء فعنه عمري لا أحول
فسألتها : وإذا سئلت عن الخلاصة ما أقول ؟
قالت : فقل اطعم حلالا واستقم تحيا القبول

فسألتها : يا أم كيف ترين إخلاص العمل ؟
قالت : إذا استحضرت فيه دائما قرب الأجل
فسألتها : ما الزهد ، فيما ولست بعد المكتمل
قالت : إذا استحييت من مولاك قصرت الأمل
فسألتها : ما الصبر إن الصبر مُرٌّ حين حل

قالت : إذا عشت الرضا ألبست بالصبر الحل
فسألتها : ما الشكر كيف وكل فعل ذو علل ؟
قالت : إذا استبرأت من دنياك لم تحيا الزلل
فسألتها : أماه أخشى القبر قالت : ذا خطل
فالقبر للأخيار روض ذو نعيم لا يمل

فسألتها : يا أم كيف ترين تنصلح القلوب ؟
قالت : إذا التسليم تم لوجه علام الغيوب
فسألتها : ذنبي عظيم إنني كلي عيوب
قالت : فيأس العبد أردى عند غفار الذنوب
فسألتها : لكننى أخشى غدا شر الخطوب
قالت : أشد الخطب يا ولدي هنا ألا تتوب
فسألتها : كيف السبيل وليس لي عزم دؤوب ؟
قالت : فإن يك للهوى درب فللتقوى دروب
فسألتها : كيف التطهر توبة قبل الغروب ؟
قالت : بالاستغفار في الأسحار تنكشف الكروب

فسألتها : كيف السبيل وما لنا في الله حيله ؟
قالت : فسل بالمصطفى نعم المشفع والوسيله
فسألتها : ومتى يرى العبد المحب له دليله
قالت : بنور المصطفى أرأيت يا ولدي مثيله
فسألتها : هل نسأل المولى به أو بالفضيله ؟

قالت : فإن الله لا يرضى بمن يجفو خليله
فسألتها : أفلا أجاهد باسمه أهل الرذيله
قالت : ولا تهدأ فسيف الحق ما أحلى صهيله
واصدق وبرّ الوالدين ففي الرضا منح جميله
الله يا ولدي فدا طه فقم والزم سبيله

فسألتها : يا أم كيف أعيش في نور الحبيب ؟
قالت : بدمع الليل كم في الدمع من طب وطيب
وأقم صلاتك بالزكاة تبرأ مما يعيب
وأقم زكاتك بالصلاة بذكره بفم رطيب
وأقم صيامك محرم الأشواق ما لج المغيب
وانهض وأحرم بالصيام عن السوى تطفى اللهب
وانصر أخاك وقل لجارك يا بني وللغريب
وعد المريض وعد على أهل البلاء بما يطيب
فإذا لزمتم فقد علمت لكل مجتهد نصيب
واقراً معي وقل فتح من الله وقل فتح قريب

فسألتها : كيف السبيل إذن لكسب المعمه ؟
قالت : كتاب الله فالزم مؤمناً ما شرعه
فيه الحياة به النجاة به السمات الجامعه
الباقيات الصالحات الطيبات الممتعه
وبه الهدى وبه الرضا وبه الغنى وبه السعه

يبيدي لنا عن كوننا فحوى الأصول الأربعة
نار الجوى لطف الهوى ترب النوى ماء الدعه
ما أبدعه ما أجمعه ما أرفعه ما أروعه
إن تتبع لا تبتدع قم واستمع واصدق معه
الله يا ولدي وإلا زلزلت والواقعه

فختمت أسئلتى وكيف سيدفع الله البلاء ؟
قالت : فإن ترجو المجيب فثق بمن أوحى الدعاء
واذكر أخافت أم موسى بين تابوت وماء
أو خاف إبراهيم وهو يرى اللهيب إلى السماء
فسألت : لكنى عصيّ والتقى شرط الرجاء
قالت : فإن الله للمضطر مهما قد أساء
فأبوك آدم قد تلقى ما أفيض به العطاء
فادع المهيمن بالشفيع وآله والأنبياء
واسأله بالقرآن يا ولدي فذا خير الدعاء
واحيا الرضا عبدا وقل جل الإله وما يشاء

الجزء الأخير

" الاتجاه المعاكس "

إن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويساير الركب البشري حيث اتجه وسار ، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ويفرض على البشرية اتجاهه ، ويملي عليها إرادته لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ، ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهه ، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع .

إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ومقام الإرشاد والتوجيه ومقام الأمر الناهي ، وإذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله ويظل في صراع معه وعراك حتى يقضي الله في أمره .

إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام ، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد .

محمد يوسف موسى

من كتاب

(ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)